الفصل الثالث

فتوته تثير في سمعه ضجة، لا يسمعها

- مدام دي سيفينيه -

عندما جاء الكسي لزيارة عمه، في عيد ميلاده الرابع عشر، لم يشعر، كما كان يتوقع، بالاختلاجات والمشاعر العميقة التي أحس بها في السنة الماضية. فان نزهاته الطويلة على ظهر الحصان الذي قدمه له عمه، بارتمائها قوى بدنه، قد هدأت من هياج أعصابه، وأوقدت فيه جذوة هذا الشعور الدائم بالصحة الطيبة، يضاف إلى فتوته، كشعور مهم بعمق موارده وقوة أفراحه. انه ليشعر تحت لفح النسمات التي يوقظها سيره الحبيب على ظهر حصانه، و كأن صدره ينتفخ كالشراع وجسده يلتهب كنار الشتاء، ويحس بجبينه رطبا طريا كالأوراق والأغصان الهاربة التي تلتطم به لدى مروره. وهو إذ يشعر بجسده يقسو، ويشتد عوده صلابة في الماء البارد، أو يسترخي ويستريح طويلا في ساعات القيلولة الهينة، ليجد في كل هذا ما يهيج فيه قوى الحياة، هذه القوى نفسها التي كانت لعمه في ما مضى، باعث كبر وزهر، ثم انحسرت عنه لتهج نفوسا أخرى على أكثر من الفتوة، ثم لن تلبث أن تغادرها، هي الأخرى بعد ذاك..

لم يكن قد بقي في الكسي شيء بوسعه أن يهن وينهار لمصير عمه المحزن ونهايته القريبة، أن الوشوشة الفرحة لهذا الدم الذي يتخبط في

عروقه، وهذه الرغبات تشتعل في رأسه، كانت تصد عن أذنه شكلة المريض ولهائها الخافت. فلقد دخل الكسي في هذه المرحلة من العمر التي يشتغل فيها الجسم بقوة ليشيد قصورا له يقيمها بينه وبين النفس فتبدو وكأنها قد اختفت إلى اليوم الذي يحفر فيه المرض أو الحزن ثغرات تبدو خلالها. لقد اعتاد على مرض عمه المميت، كما نعتاد ونألف كل ما يستمر أمده من حولنا.

عندما قال له عمه في ذلك اليوم: "سأعطيك العربة والحصان معا هذه المرة، يا صغيري الكسي". أدرك أن عمه لابد إن يكون قد فكر في نفسه: "إذ بدون هذا، قد لا تحصل على العربة أبدا".

كان يعلم أنها فكرة جد حزينة، ولكنه لم يشعر بما تثيره من حزن، اذ لم يكن لديه في الوقت الحاضر مكان الحزن العميق. وعجب بعد أيام، في إحدى قراآته، لوصف مجرم لم تستطع أن تثير في قلبه الحنان أرق عواطف محتضر عزيز أحبه حتى العبادة. وخيل إليه انه قد وجد صورة ذاته في شخص هذا المجرم فلم يستطع أن ينام. ولكنه قام في اليوم التالي بنزهة جميلة على ظهر حصانه، وسعي جادا في عمله، حتى شعر بحنان عظيم نحو أقاربه الأحياء وعاد يستمتع بالحياة بلا هواجس وينام بلا ثمة اضطراب.

واشتدت وطأة المرض على الفيكونت فمنعته عن السير. ولم يعد يخرج من القصر. وكان أصدقاؤه وأهله يقضون لديه سحابة يومهم. كان بوسعه أن يصرح بأي سخافة، أو يسرف بشكل جنوني، ويظهر كل تناقض،

أو مزعج مثير، فلا يسمع من أهله عتبا ولا لوما، ولا يسمح أصدقاؤه لأنفسهم بأي مزاح أو معارضة. فكأنهم قد توخوا ضمنا، إن ينزعوا عنه مسئولية أقواله و أعماله. وكان يبدو على الأخص، أنهم يتوخون منعه، بالإنس والملاطفة، عن سماع آخر صرير لهذا الجسم الذي تفارقه الحياة.

وكان الفيكونت يقضي ساعات طويلة بهيجة رأسا لرأس مع ذاته، هذا الضيف الوحيد الذي كان بهمل دعوته لحضور حفلاته خلال الحياة. وكان يشعر، وهو يزين جسمه الحزين الشاكي، ويعزز في ذاته شعور الاستسلام لمشيئة القدر، بينما يستمتع بمشاهد البحر، خلال النافذة، كان يشعر بشيء من الفرح الميلانكولي، ويحيط مشاهد موته وكثيرا ما كان يتأملها وبحور فيها بلا انقطاع كقطعة فنية، مناظر لهذا العالم، لم تكن صورها قد تلاشت من خاطره بعد، وكان بعدها عنه يجعلها في نظرة جميلة غامضة.

أن مشاهد وداعه للكونتس، حبيبته العذرية الكبرى، وكان يسيطر على صالونها رغم امتلائه بأمجاد فناني أوروبا وسادتها العظام، لترتسم خطوطها في خياله منذ الآن ويبدو له حديث لقائها الأخير على هذه الصورة:.

... كانت الشمس قد توارت. وأطل البحر خلال أشجار التفاح بلونه البنفسجي الفاتح. غيوم صغيرة، وردية وزرقاء، خفيفة كتيجان ذابلة، مستمرة كالآسي، كانت تطفو على الأفق. سلسلة من النخيل الحزين الحالم، جذوعها غارقة في الظلمة ورؤسها مكللة بهالة من الحمرة، تتقد أغصانها بآخر شعاع ترسله الشمس الغاربة، و كأنها توقد في هذه التريات

المظلمة تيجانا من نور. والنسيم العابث يمزج بين رائحة البحر والحليب المحروق والأوراق الرطبة. لم تكن بلاد سلفانيا قد لطفت من سويداء المساء من قبل مثل هذا المشهد الفاتن.

– أحييتك كثيرا يا بلداسار إلا إني لم أهبك سوى القليل.

– ماذا تقولين، اوليفيان. كيف اعطيتيني قليلا ؟ لقد منحتني الكثير، وأكثر مما طلبت. حتى لكان حواسنا قد اشتركت في حبنا. لقد أحببتك عذراء سماوية وحنوت على كمرضعة. أحببتك حبا لم يفسد براءته أمل بلذة جسدية. ألم تهبيني بالمقابل، صداقة لا مثيل لها، حديثا عذبا مزينا، وباقات من الورود اليانعة. لقد استطعت أنت وحدك، بيديك الأموية المعبرة، أن تطفئي من وهج جبيني الملتهب. لقد سكبت في شفتي الذابلتين عسلا شهدا، ووضعت أمام صفحة حياتي صورا نبيلة رائعة. أعطني. أعطني يدك اقبلها أيتها الحبيبة.

مجرد عدم اكتراث الأميرة بيا، المدلهة بحب كاستريسبو، وكان بلداسار يحبها بجملة قلبه وحسه، كان يرده بين حين وآخر إلى حقيقة قاسية كان يجهد نفسه لتناسيها. وكان يخيل إليه، لأيام قريبة مضت، عندما كان يسير في بعض الحفلات متأبط ذراعها، انه قد كف من قيمة غريمه. ولكنه هنا أيضا، كان يحس بعينيها العميقتين زائغتين في أغوار حب آخر لا يخفيه غير اشفافها على هذا المتيتم العليل.. أما الآن، فمجرد هذه النزهة إلى قربها أضحت مستحيلة، فان اضطراب حركات ساقيه لم يعد يسمح له

بالخروج. ولكنها كانت تأتي لتراه بين حين وآخر. وكأنها اشتركت هي الأخرى في المؤامرة المدبرة لمؤاساته، فكانت تحدثه دائما بلطف بارع لم يعد يكذبه السابق عدم اكتراثها أو نبرات غضبها. وكان يشعر بهذا اللطف والحنان، كما لا يستطيعه أحد سواها، يغمر كيانه ويستولي على مشاعره.

وذات يوم بينما كان الفيكونت ينهض عن كرسيه ليذهب إلى المائدة لحظ خادمه وهو معجب ذاهل بأن سيده يمشي أفضل من قبل. ودعي الطبيب لمعاينته فتريث بعض الوقت قبل أن يقطع برأي. وفي اليوم التالي بدأ الفيكونت يمشي بتحسن ظاهر. وخلال ثمانية أيام سمح له بالخروج. وتخامر أهله وصحبه أمل عظيم. ورأى الطبيب أنها قد تكون في الأصل علة عصبية قابلة للشفاء أخذت مظاهر الشلل العام، وأخذت أعراضها تتلاشى الآن. وقدم شكوكه لبلداسار على أنها حقيقة مؤكدة: "لقد شفيت"!

وابدى المحكوم بالموت فرحا مؤثرا وهو يستقبل العفو عنه. ولكنه، خلال بعض الزمن، بدأ نوع من القلق الحاد ينبثق خلال هذا الفرح الذي أضعفته عادة قصيرة الأمد لم يألفها طويلا. وهنا، في منجى من صدمات الحياة وعواصفها، وفي هذا الجو من الطائف المقررة والهدوء المفروض، والتأمل الحر الطليق، بدأت فكرة الموت تنمو في ذاته، على شيء من الغموض. أخذ يشعر بخوف مهم لفكرة انه سيبدأ الحياة من جديد، ويتحمل من جديد أيضا، الصدمات التي نسي عادة تحملها، ثم يفقد الحنان والعطف الذي أحيط به. وشعر بشكل مبهم

أيضا بأنه لجد سئ إن ينسى نفسه، في غمار اللذة والعمل، بعد إن استطاع التعرف إلى ذاته، هذا الشقيق القريب الذي كثيرا ما حادثه وهو يتأمل المراكب الشراعية تخطط صفحة البحر، وقضى بصحبته الساعات الطوال، هناك بعيدة.. وهنا، في أعماق ذاته.

انه ليشعر الساعة بحنين وشوق، يشبه شوق المغترب، يستيقظ في قلبه فجأة لمعالم وطنه الأول. انه ليشعر بحنين إلى الموت، وقد خيل إليه في البدء انه قد نأى عنة في سفرة أبدية بعيدة.

واقترح بلداسار فكرة، وكان جان جالياس قد عرف أمر شفائه، فعارضها بشدة، ومازحه هازئا. وكانت أم الكسي تزوره منذ شهرين صبحا ومساء، فظلت يومين دون إن تراه. إن هذا لكثير! وكان الفيكونت قد فقد منذ وقت طويل عادة النضال والكفاح فلم يعد يود استئنافها. وذلك أن الحياة لم ترتبطه بمفاتنها. وعادت إليه قواه، وعادت معها رغبات الحياة. بدأ يخرج ويحيا ومات مرة ثانية لذاته. وخلال شهر ظهرت من جديد أعراض الشلل العام. وكسابق عهده أضحى المشي عسيرا عليه، ثم أضحى مستحيلا. جرى هذا باطراد تدريجي تعود معه الرجوع إلى الموت. لقد كان لديه الوقت الكافي ليلوي برأسه.

ولم تكن للنكسة فضائل الإصابة الأولى التي بدأ في آخر عهدها يقطع صلته بالحياة، لا ليراها في حقيقتها، بل لينظر إليها كلوحة. أما الآن، فهو أكثر ما يكون صلفا وغرورا، يتحرق أسفا على اللذات التي لم يعد يستطيع تذوقها.

امرأة أخيه وحدها، وكان يحبها بحنان، كانت تغمر نهاية أيامه بالعطف فتأتي لتراه مع الكسي.

وذات يوم بينما كانت آتية لزيارته جفلت بها الخيل فسقطت إلى الأرض وصدمتها حوافر حصان كان يسير به فارسه الخبب، فنقلت إلى منزل الفيكونت، وقد أغمي عليها وشج رأسها.

وتحامل السائق على نفسه لينقل إلى الفيكونت النبأ الأليم فشحب لون وجهه واصطكت أسنانه و برقت عيناه. و في ثورة غضب رهيب انهال على السائق بالسباب والشتيمة. و كان يبدو أن هياج غضبه يحاول أن مخفي نداء حزينا ناعما، يتخلل فترات هذا الهياج، حتى لوكأنه شكاة عليل إلى جانب الفيكونت الثائر. ولم تلبث هذه الشكوى الضعيفة في البدء، أن خنقت صراخ غضبه فهوى على كرسي يجهش بالبكاء، ثم راح يغسل وجهه كي لا تقلق امرأة أخيه لمعالم حزنه.

وقضى الفيكونت يومين وليلتين إلى قرب نسيبته. وفي الليلة الثانية غامر الطبيب بإجراء عملية خطرة، وهبطت درجة الحرارة في اليوم التالي فتطلعت المريضة بابتسامة إلى بلداسار الذي لم يستطع ضبط دموعه فبكى من الفرح بكاء طويلا.

وعندما جاء إليه الموت رويدا رويدا لم يرد أن يتطلع إليه، أما الآن فقد رأى الموت أمامه فجأة. وروعه إذ هدده في أعز مخلوق لديه فانحني له راجيا مستعطفا. انه ليشعر الآن بأنه قوي حر، يعتز لشعوره بأن

حياته لم تكن غالية لديه كحياة نسيبته. انه الموت الآن ينظر إليه وجها لوجه، وليست المشاهد التي تحيط بالموت. وكان يريد إن يظل هكذا حتى النهاية، فلا تأخذه من جديد الأكاذيب التي أرادت إن تجعل له نزعا جميلا رائعا فذهبت به بعيدا في تشويه وتحقير أسرار الموت، كا حجمت عنه أسرار الحياة.